Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.26, Issue: 2019

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد السادس والعشرون، 2019م.

الرموز ودلالاتها في شعر توفيق زياد

الدكتورة عزت ملا ابراهيمي
أستاذة قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران/ إيران
حامد جنادله
(طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران/ إيران)
ليلا ترابي
(ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران/ إيران)

Abstract:

The use of codes and symbols in the poetry of Tofegh Zayyad

A symbol of Palestinian resistance literature, one of those poets who have several layers of his poetic language and the beauty of his work adds meaning and purpose to get the reader faced with the joy of discovery activities. He among the poets, using symbolism, creates beautiful pictures and original, codified language of choice and sustainability concepts having more richness. He using the contact symbol and motivation, leads to more reflection on the strength of his life in keeping the people alive. In this study, the authors have attempted to cross the way, to reviewing and explaning the symbols used in his poems. There is an additional inference from the findings of the common meanings of symbols, with the creation of new concepts having a

clear picture in their occupied homeland. The natural symbols are most frequent in his poems. Concepts such as sustainability, rage, rebellion, revolution, hope to win against the invaders are in there many lyrics of the high frequency.

Key words: Resistance, symbol, much success, poetry, Palestine.

الملخص

أصبح استخدام الرمز من ميزات أبرز شعراء المقاومة الفلسطينية. فهم باستخدامهم للرموز إنّما يزيدون في جماليات شعرهم من خلال إضفاء مسحة الغموض والعمق على لغتهم الشعرية ويساعدون القارئ في فهم المعاني العميقة وبذلك يمنحونه لذة أكبر. يعتبر توفيق زيّاد من أبرز الشعراء الذين استخدموا الرموز راسمين من خلالها أجمل الصور وأبدعها وقد أثرى بذلك مواضيع الأدب المقاوم أيّما إثراء. فالشاعر من خلال استخدامه لتقنية الرموز يدفع القارئ إلى المزيد من التفكير. سعى المؤلفون في هذه المقالة إلى دراسة أنواع الرموز في شعر توفيق زيّاد. يبدو من خلال البحث أنّ الشاعر إضافة إلى فهم المعاني المشتركة من الرموز، استطاع خلق مفاهيم جديدة صور من خلالها أوضاع بلاده المحتلّة بشكل جلي. وقد كانت الرموز الطبيعية أكثر بروزاً في قصائده وتردّد في شعره الكثير من مفاهيم من مثل المقاومة، والغضب، والتمرد، والثورة، والأمل بالنصر، ودحر العدو الصهيوني.

الكلمات المفتاحية: المقاومة، الرمز، توفيق زيّاد، العدو، فلسطين.

المقدمة

من الموضوعات التي كثر شيوعها في الشعر الفلسطيني المقاوم ظاهرة الرمز، وهو يعدّ من الأساليب الجمالية في الشعر. لعبت الرموز والمفاهيم المتعلقة بها من مثل الأساطير والأقنعة دوراً بارزاً في مجال المعاني وخلق الصور الذهنية. وقد شكلت هاتان الميزتان السبب الأكبر في كثرة استخدام الرموز، والأقنعة،

والأساطير في القصائد الشعرية. استخدم شعراء المقاومة الفلسطينية أساليب حديثة من مثل تقنية الرمز في إعرابهم عن مشاعرهم تجاه وطنهم ودعوتهم إلى النضال والمقاومة وخلق الأمل في نفوس الشعب وإيصال الصوت إلى ضحايا الامبريالية العالمية. فاللغة الرمزية قد مكنت شعراء المقاومة ومن ضمنهم توفيق زيّاد من أن يتناولوا مفاهيم المقاومة، والتحدى، والتطلع إلى المستقبل الزاهر، والشهادة، ورفض الجور بمأمن من عقاب السلطات الصهيونية. قبل الحديث عن الرمز في شعر توفيق زيّاد، من المفيد أن نتكلم عن الرمز في الأدب بصفة عامة.

الرمز لغة واصطلاحاً: إن الرمز بإتفاق جلّ المعاجم يحمل معناً إيجابياً، الرمز في اللغة يعني الإيماء، والإشارة، والعلامة. وورد في لسان العرب لابن منظور في مادة رمز: "الرمز معناه تصويت خفي بلسان كالهمس ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت، إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين، والحاجبين، والشفتين، والفم"(1). والرمز بمعناه العام هو الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري، مع اعتبار المعنى الظاهري مقصوداً أيضاً. وهو بلغة أخرى عبارة عن إشارة حسية مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس.

أما الرمز في الإصطلاح فهو آلة أدبية تُمكن الأديب أن يتكلم وراء النص ويتيح له أن يتأمل "شيئاً آخر وراء النص فالرمز قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء"(2). وتحديده بمعناه الدقيق يستلزم مستويين: مستوى الأشياء الحسية أو الصور الحسية التي تؤخذ قالباً للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، وحين يندمج المستويان في عملية الإبداع تحصل على الرمز(3). إذن أطلق الرمز على ما يشير إلى شيء آخر يعني كان الرمز بديلاً عن شيء آخر أو يحلّ محله أو يمثله، الشيء الذي له وجود حقيقي معلوم وبواسطة الرمز يشير إلى فكرة أو معني محدد، فالعلاقة الداخلية تربط الدال بالمدلول مثلاً الصليب يرمز إلى المسيحية، إذن فالعلاقة بين الصليب والمسيحية هي علاقة رمزية. وهناك علاقة وطيدة بين ظاهر الرمز وباطنه.

غرف شعراء العرب المعاصرين من معين الرموز بكافة أنواعها صوراً فنية دالة أغنت نصوصهم الشعرية وعمقتها فكرياً وجمالياً. واستخدام الرمز في الشعر دليل على عمق ثقافة الشاعر من جهة، وعمق نضجه الفكري من جهة أخرى، إذ لا بدّ للشاعر الذي يرغب في توظيف الرمز فيشعره من ثقافة وتجربة واسعة؛ لأن الرمز الشعري مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانيها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاصاً. فأصبحت الرمز وبكافة مستوياتها أهمية قصوى للشاعر الفسطيني المعاصر، بحيث غدا استدعاؤها أمراً يثري المضمون الشعرى، ويكشف عن المعاني التي يصعب الحديث عنها بطريقة مباشرة. «فالرموز ومعطياتها لها القدرة على الايحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد حيث تعيش هذه المعطيات في وجدان الناس وأعماقهم، تحفّ بها هالة من القداسة والإكبار» (4)؛ لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري، والوجداني، والنفسي ومن ثم فإن الشاعر الفلسطيني حين يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية لرؤيته الشعورية عبر جسور من معطيات التراث وافرازات الرموز، فإنه يتوسل إلى ذلك بأكثر السوائل فعالية وقدرة على التاثير والنفاد. هذا بالإضافة إلى "أن استخدام الرموز ومعطياتها التراثية يضفي على العمل الشعري عراقة وإصالة ويمثل نوعاً من إمتداد الماضي بالحاضر، وتغلل جذور الحاضر في تربة الماضي الخصبة، كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعاً من الشمول والكلية، بحيث يجعلها تتخطى الزمان والمكان ويتعانف في إطارها الماضي والحاضر"(5).

هدف البحث: يسعى المؤلفون في هذا المقال لدراسة وتحليل الرمز الشعري لدى الشاعر الفلسطيني، توفيق زيّاد، معتمدين على المنهج التحليلي الوصفي محاولين الإجابة عن السؤالين التاليين وهما:

1- ما هي الرموز التي استخدمها الشاعر في شعره؟
2- وما هي المصادر الهامة في هذه الرموز؟

توهم الباحثون في فرضياتهم الأولى أن أكثر الرموز التاريخية، والأدبية،

والطبيعية التي استخدمها الشاعر قد استمدها من التراث الوطني الفلسطيني، والقومي العربي، والأحداث التاريخية، والثقافة الشعبية وقد استطاع الشاعر من خلال لغة الرمز أن يحرض الشعب الفلسطيني على الثورة ضد الطغاة الصهاينة.

خلفية البحث: فيما يتعلق بخلفية البحث فقد ألفّ عدد من الدراسات حول هذا الشاعر وقد تناول جوانب عدة من ديوانه الشعري. منها:

1. رسالة قد ألفتها الطالبة رقية ركنى في جامعة إعداد المدرسين بعنوان "عناصر الثقافة الشعبية في شعر المقاومة الفلسطينية"، وقد درست فيها الأشعار الشعبية لدى الشاعر أحمد دحبور، وتوفيق زياد، وسميح قاسم.
2. ورسالة أخرى بعنوان "أثر الفكر اليساري في الأدب الفلسطيني" ألفتها الدكتورة رقية زيدان، وقد تناولت فيها الكاتبة الأفكار اليسارية لدى محمود درويش، وسميح قاسم، وتوفيق زياد.

أهمية البحث: كما نرى في أعلاه لم تتناول هذه الدراسات الرمز الشعري لدى هذا الشاعر الكبير ولم تفرد دراسة شافية وكافية لجانب الرمز الشعري في ديوانه، رغم أن الموضوع على جانب عظيم من الخطورة ويلعب دوراً بناءاً في قصائده إذ يتعذر فهم النص الشعري الحديث دون الكشف عن دلالاته الرمزية؛ لذلك سعت هذه الدراسة لتسليط الضوء على الجانب الذي تناساه الدراسون فقمنا بدراسة ديوان الشاعر واستخراج رموزه الشعرية وبيّنا دلالاتها من خلال ذكر نماذج شعرية شاهدة على ذلك.

الرمزية في شعر توفيق زياد(6): فالشعراء الفلسطينيون دائماًما كانوا يواجهون صعوبات جمّة في الكشف عن قدراتهم الإبداعية والفنّية في تصويرهم المآسي وأزمات الشعب الفلسطيني بلسانهم الصريح. فاستخدموا اللغة الرمزية لإضفاء صفة الإنسانية إلى شعرهم من جهة وإدخال ثقافة ثرية وثمينة من الكلمات في ثوب رمزي إلى أدب المقاومة الفلسطينية من جهة أخرى(7). اعتمد توفيق زياد كسائر شعراء المقاومة الفلسطينية اللغة الرمزية في الكشف عن عواطفه ومشاعره

العميقة تجاه وطنه المحتلّ ودعوته الحثيثة إلى النضال ومقاومة المعتدين وقد استخدم في عمليته هذه العناصر الطبيعية، والعناصر الزمنية، والمكانية، والألوان، والشخصيات التراثية.

أنواع الرموز الشعرية ودلالاتها لدى الشاعر

أ) الرموز الطبيعية: يعدّ الرمز الطبيعي أحد أهم عناصر التصوير الرمزي، وهو شكل "يبرز رؤية الشاعر الخاصة تجاه الوجود، ويعمل على تخصيبها، كما أنه يمكن الشاعر من استبطان التجارب الحياتية، ويمنحه القدرة على استكناه المعاني استكناهاً عميقاً، مما يضفي على إبداعه نوعاً من الخصوصية والتفرد"(8). فالشاعر إذ يستمد رموزه من الطبيعة، "يخلع عليها من عواطفه ويصبغ عليها من ذاته ما يجعلها تنفث إشعاعات وتموجات تضج بالإيحاءات. فالشاعر لا ينظر إلى الطبيعة على أنّها مجرد شيء مادي منفصلاً عنه، وإنما يراها امتداداً لكيانه، يتغذى من تجربته. زيادة على ما تضفيه الأبعاد النفسية على الرمز من خصوصية يلعب السياق أيضاً دوراً أساسياً في إذكاء إيحائيته"(9). استمد توفيق زياد رموزه الطبيعية من طبيعة وطنه كاشفاً الكثير من زواياها الخفية إلى العيان. وقد شملت رموزه الطبيعة حية وميتة معاً. يأتي ترتيبها في هذا المقال على أساس أهميتها في شعر الشاعر.

1– التين والزيتون

التين والزيتون من الكلمات المقدّسة التي أقسم بها الله في كتابه المنزَل. وقد كانتا من أهم الرموز التي تجلت في أدب المقاومة الفلسطينية ومن أكثرها استعمالاً. فالزيتون شجرة غنية بالمعاني الرمزية؛ فهي تحتوي على معاني العشق، والصلح، والخصب، والنقاء، والطاقة، والنصر، والجزاء، والدعم، والطيب، والمحبة، والنجاح. فالزيتون من الرموز التي صبّ عليها شعراء المقاومة اهتماماً بالغاً واستخدمها هؤلاء الشعراء ذريعة للمقاومة الفلسطينية ضد الإحتلال الصهيوني، إذ إن للزيتون بعداً تاريخياً ودينياً. فإن الزيتون كان في فلسطين منذ الآلاف

السنين، وقد عرف فيها كمحصول عربي(10).

استخدم توفيق زيّاد الزيتون رمزاً للصلح، والسلام، والمقاومة كما إنّه اعتبر شجرة الزيتون رمزاً للهوية الفلسطينية، كما اعتبر التين رمزاً للسلام، والخصب بجانب الزيتون أيضاً ونجد ذلك في قصيدته "هنا باقون". فالشاعر في هذه القصيدة يشدّد على مقاومة الشعب الفلسطيني الذي ثبت في وطنه ورفض النزوح رغم الجور الصهيوني وبقي يزرع الزيتون والتين في أرضه ويسقيهما من دمه الزكي. وبالتالي فهو لن يغادر أرضه رغم فداحة الصعوبات والأزمات التي سيواجهها من قبل الأعداء (11):

إنَّا هُنا باقُون ... نَحرُسُ ظِلَّ التين والزيتون

2- البرتقال

تعتبر هذه الفاكهة من أكثر المنتجات الزراعية الرئيسة إصالة وعراقة في فلسطين ومن الألفاظ الدالة على الخير، والعطاء، والجمال، والأنس(12). فلهذا استخدمها الشاعر رمزاً لهوية الأرض الفلسطينية. إضافة إلى ذلك استخدمها في قصيدته "أشدّ من المحال" زهر شجرة البرتقال رمزاً لخلاص الشعب الفسطيني من ألمه وعذابه (13):

يـا إخـوَتي! هـذا الـتُرابُ ترابُنـا زيتونُـه ... مِـن مـاءِ قلـبي
زيتُـهُ ذوب الـلآلي ومِـن الأمـاني المسـكراتِ
عَبـيرُ زَهـر البُرتقـالِ

فالشاعر هنا يؤكّد على حق الشعب الفلسطيني في امتلاك أرضه ويراه الوارث الحقيقي لها. ولذلك يشجع الشعب على الصبر والمقاومة لاسترداد الأرض من أيدي الصهاينة. وهو يشير إلى كثرة النعم في هذه الأرض ويستخدم عطر أزهار البرتقال رمزاً للحياة الرغيدة والأحلام الناعمة. كان الشاعر قادراً على التجديد الصوري في وصف عناصر المقاومة، وعلى التوليد الدلالي لمساحات الرمز

المقاوم، وربطه بقضايا الإنسان الفلسطيني، وحياته، وقيمه. فرمز الشاعر في هذه الأبيات بالنباتات الطبيعية كالزيتون، وزيته، والبرتقال، وكانت هذه الكلمات رمزاً للأرض المغتصبة، ورمزاً للحياة والمقاومة المستمرة، ورمزاً للتحريض على الثورة ضد المحتلين.

3– النسر

وهو رمز للعزيمة القوية أو القساوة والعناد (14). المعنى الأوّل المتبادر إلى الذهن من كلمة النسر هو العظمة، والشجاعة، والعزة. وذلك أن النسور لقدرتها الفائقة قد استخدمتها الأمم بثقافاتها المتعددة رمزاً للحرب والقوة الملكية. ولهذا قام توفيق زيّاد بتوظيفها رمزاً للمناضلين الفلسطينيين الذين يقاومون الأعداء ببسالة منقطعة النظير. أنشد الشاعر في قصيدته "أشدّ من المحال" قائلاً (15):

قَســـماً بِأرضـــي، بِالشَـــواطيء بِالسَّـــــواقي، بِـــــالمراح
بِالـــــــدَّم، بِـــــالأحرار بِـــالعَزم المســـعَّر، بِالرّيـــاح
لَتـــبرقعنَّ نُســـورُنا أعشاشَـــها بِلَظَـــــى الكِفـــــاح

فالشاعر في هذه الأبيات اعتبر النسور رمزاً للمجاهدين الفلسطينيين وأقسم على أن لا يترك المناضلون ساحات الجهاد حتى النصر ودحر الاحتلال الغاشم. وهو صور لنا ثورة الشعب الفلسطيني نحو تحرر الشعب وتحطيم القيود التي حددتهم في سبيل الحرية وهذه النسور يحرر شعبه من الظلال، والظلمة، وحصار الصهاينة. والشاعر رمز إلى الثورة بالنسور التي تطير بسرعة وتترك خلفها الموانع والحواجز للوصول إلى مطلوبها. وبهذا الاستخدام أراد أن يظهر لنا أن الثورة وامتدادها حتى النهاية أمر طبيعي وطبيعة الثورة كطبيعة النسور، فهي تتحرك نحو الأمام والحركة.

4– الذئب

يعتبر الذئب الذكر في الأدب رمزاً للوحشية تعتبر أنثاه رمزاً للخسة،

والغضب، والافتراس (16). نظراً إلى أن كلمة الذئب توحى بالقساوة والوحشية استخدمها الشاعر رمزاً للمعتدين، إذ أنّ قلوبهم قاسية كالذئاب وهم الذين غصبوا أرض فلسطين ولطخوها بسمومهم، وقسوتهم، وتدميرهم. فقصيدة «شباكي وأنا» من ضمن القصائد التى استخدم فيها الشاعر كلمة الذئب رمزاً للصهاينة حيث يقول (17):

مـــــاذا تَقُـــــولُ الـــــرّيح يـــــا شُـــــبّاكي المفتـــــوح
عَـــــن شَـــــعبي الـــــذّي تركتـــــهُ سَـــــكران بِالعَـــــذاب
الجُلنـــــار قلبُـــــهُ وفـــــى عُيونِـــــه مَخالِـــــبُ الـــــذِئاب؟

فالذئب رمز للدمار والاحتلال الذي خنق الأمة الفلسطينية بمخالبه الآثمة؛ وقتل أبناءها ودمر كل ممتلكاتها. فالشاعر يرى أن العدو الصهيوني في الحقيقة ذئب افترس شعبه وهو لا يعرف غير الوحشية والافتراس.

5– الشمس

تعتبر الشمس في علم الفلك رمزاً للحياة، والدفء، والنهار، والنور، والقدرة، والجنس المذكر، والأب، وكلّ ما يعكس الضوء(18). وقد استخدمها الشاعر في شعره رمزاً للأمل بالنصر، والمستقبل المشرق، والحياة الجديدة، والأيام الآتية الجميلة. فكلمة الشمس في قصيدة "مليون شمس في دمي" جاءت لتدلّ على أمل الشاعر بالمستقبل الزاهر(19):

كِبريـــــائي وأنـــــا في قيـــــدِهم أعنَـــــفُ مِـــــن كُـــــلِّ جُنـــــون
العَجرفـــــــــــــــــــــة في دمـــــي مليـــــون شَمـــــس
تَتَحـــــدّى الظُلـــــم المختلفـــــة وأنـــا اقـــتَحِمُ السَّـــبعَ السَّـــماوات
بِحـــــــــبّي لَـــــــــك ... يـــا شـــعب المآسِـــي المســـرفَة
فأنـــا ... إبنُـــك ... مِـــن صُـــلبِك قلبـــاً وضَـــميراً وشَـــفة...!!

فالشاعر في أبياته الأولى من هذه القصيدة يؤكد على أنّ الأعداء قاموا بنهب ثروات الشعب الفلسطيني من خبز، وملح، وحياة، وسكن لكنّهم لم يستطيعوا أن يسخّروا هذا الشعب العظيم ويخضعوه. فهذه الأبيات تدلّ على أمل الشاعر بالمستقبل المشرق والحياة الجديدة التي أخفاها زمناً في نفسه وعكسها الآن من خلال رموز من مثل الشمس. ولذلك لشغفه الكبير بوطنه يتحدى العدو الصهيوني ويدعوه إلى النضال حتى أنّه يعلن استعداده التام للمجازفة بتخطي صعوبات شديدة كاقتحام السبع السماوات.

6- النار

فكما أنّ ضوء الشمس رمز للخصب، والنقاء، والشروق، فإنّ لهب النار يدلّ على هذه المعانى نفسها أيضاً. لكنّ النار تحمل وجهاً سلبياً آخر إذ إنّها تملأ الجو بالدخان وتخنق البشر وتحرق كلّ شيء وتدمّره(20). استخدم توفيق زياد النار رمزاً للنهضة، والثورة، وكلّ ما من شأنه أن يثير من مثل هذه المعاني في ذهن الإنسان وكذلك هى رمز لعزيمته الراسخة التي تدلّ على شغفه الشديد بوطنه وشعبه(21):

عزمٌ ... تسعَّرَ في دَمي ناراً عَلى الحَطب الشَّديد

فالنار في هذا المقطع رمز للثورة وما يثير هذه الثورة في ضمير الشاعر هي العزيمة التي ترسخت في قلبه بفعل حبه لوطنه وشعبه.

7- الريح

لهذا الرمز في الأدب المعاصر توظيفات عدّة وبسبب حركته الذاتية يرمز إلى العذاب، والدمار، وعدم الثبات والاستقرار. ولدلالة الريح على الدمار جذور دينية، ففي القرآن الكريم استخدمت للعذاب والشدة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهلِكُوا بِريحٍ صَرصَرٍ عَاتِيَةٌ﴾ (الحاقة / 6).

فالريح في الشعر الفلسطيني المقاوم من المكونات الطبيعة الفاعلة، التي تدل على الفعل والتغيير، وتختلف صورة الريح باختلاف قوتها ونتائجها فتنتقل من

ريح هادئة إلى ريح عاصفة، ومن ريح جالب للأمطار، والعشق، والهوى إلى ريح مدمرة. لكنّه في شعر توفيق زيّاد رمز للأشخاص الأقوياء والمقاتلين الأشداء الذين يؤجّجون نار الثورات ويصلون الأعداء بنيرانها. ويطلب الشاعر من المناضلين الذين رمز عنهم بالرياح أن يرتدوا لهيب الثورة من أجل إنقاذ الوطن، بقوله (22):

سَماؤُنا رياحُها تَسَعَّرت غَلالةً مِن اللهيبِ، فارتَدى

ب) الرموز الزمنية: استخدم توفيق زيّاد الرموز الزمنية في قصائده متعددة المعانى. فهي حيناً رمز للصهاينة المحتلّين وحيناً آخر تدلّ على الجور والعذاب الذي يمارسه هذا الكيان ضد الشعب الفلسطيني الأعزل. كذلك هي تحكي اقتراب النصر على العدو والمستقبل المشرق. يكمننا أنّ نصنف أهمّ رموزه الزمنية كالتالى:

1- الليل

يستدعى الليل في ذهن السامع النوم، والموت، والأحلام، والقلق، والعطف والمكر. يعتقد العرب أن طول الليل يأتي استجابة للمشيئة الإلهية؛ إذ إنّ الآلهة يوقفون الشمس تارة والقمر تارة أخرى(23). يعتبر الليل من أهم الرموز الطبيعية في الشعر الفلسطيني المعاصر، وذلك لما يحمله من غنى دلالات يفتح آفاق النص على معانٍ متعددة ومتنوعة، تظهر قدرة الشاعر الفنية في توظيف هذا الرمز. فتوفيق زيّاد يرى أن ليالي وطنه قد طالت بفعل الجور الصهيوني بحيث لم يعد من السهل تحمّلها في قوله(24):

طـــــال لَيلـــــي...غَـــــيرَ أنِّي لســـــتُ بِالنّـــــادبِ دهـــــري

إنَّـــني أمشِـــي علـــى جُرحـــي كَـــــي أطلَـــــع فَجـــــري

للليل في شعر العربي مفهومان متناقضان: مفهوم الظلام، أي المكان الذي يحدث فيه الفساد. ومفهوم آخر وهو أنّه مقدمة لمجيء النهار أي المكان الذي يبزغ منه نور الحياة. لكنّ الشاعر استخدم الليل رمزاً للمعنى الأوّل فقد استدعى الليل في ذهنه الظلام، والجور، والحزن المتفاقم الذي يرزح الشعب

الفلسطيني تحت وطأته الثقيلة. فالشاعر الذي عاش محنة الاحتلال ومآسيه، رسم صورة حالكة لليل الذي يعمّ وطنه يومياً، فالليل الفلسطيني دوماً يلد ظلاماً دامساً يفرز دلالة القمع والكبت بقوله (25):

يـا إخـوتِي! هـذا الـتُّرابُ تُرابُنـا رُغـمَ اللَّيـالي
أرويتُـهُ بـدَمِي ودمعـي طـولَ ايَّـامِي الخَـوالي
ورَضـعتُ مِـن ثَـدى الجِبـالِ الشُّـم والقِمَـم العَـوالي

فقد أكثر توفيق زياد في ديوانه من تكرار موتيفة الليل والإلحاح عليها ولا شك في أن مثل هذه الكثرة التكرارية تعني شيئاً ما في تجربته الذاتية، وإذا أردنا من خلال منهج التحليل النفسي أن نفتش عن الأسباب السلوكية والنفسية التي تقف وراء تعلق الشاعر بهذه الكلمة على هذا النحو المركز، فسنجد أن ذلك ناتج عن انعكاس تأثير التجارب الشعورية المرّة، والقاسية، والحزينة التي عاناها الشاعر وشعبه خلال حياتهم. فلهذا يرى الشاعر أن الشعب الفلسطيني سيبقى في أرضه راسخاً رغم الجوّ الحزين السائد والآلام التي يمطرها عليه العدو الصهيوني كلّ لحظة. فهو سيدافع عن أرضه رغم الجروح والمآسي التي جشّمها إياه المعتدون الطغاة إذ إنّ هذا الوطن وطنهم ولا يمكنهم التنازل عن شبر من ترابه.

2– الصبح

وهو زمن يغدق الله فيه من نعمه الجليلة على المحسنين. فالصبح خلافاً لليل يحمل مفاهيم حسنة من مثل الضياء، والأمل، والحياة، والنشاط في الشعر الفلسطيني المعاصر. يعتبر الشاعر طلوع الفجر رمزاً للنصر، والدعة، والحرية، والأمل بانتهاء سلطة الاستبداد أو بعبارة أخرى الزمن الذي يجازي فيه المعتدون على سوء أفعالهم ويذوق فيه الشعب الفلسطيني حلاوة طعم الحرية (26):

دَمـي هـوَ ذاك الـذّى قَـد سُـفِك دَمـي هـوَ ذاك وذاك دمُـك
وقَـد شَـرِبُوا مِنـهُ حتّـى إرتَـووا فَيـا وَيلَهُـم

عِنـــــدَما يَطلَـــــعُ الصُّـــــبح... مِمّـــــــــا أتَـــــــــوا...!!

يبين الشاعر هنا نهم الجور الصهيوني في شرب دماء الشعب الفلسطيني ويحذرهم من بزوغ فجر الانتفاضة عندما ينتقم منهم بفعل الجرائم التي ارتكبوها.

3- الربيع

يمنح الربيع الأرض خصوبة وازدهاراً بفعل تساقط الثلوج وهطول الأمطار. وبناء على ذلك استخدم الشاعر هذا الفصل رمزاً لنصر الشعب الفلسطيني وخلاصه واستقلاله (27):

إنَّـــني أَمشِـــي عَلـــى جُرحـــي كَـــــى أطلَـــــع فَجـــــري
ليلـــــتي مُقمِـــــرَةٌ...تَمـــــلأ بِـــــــالأفراح صَـــــــدري

ورَبيعـي قـادمٌ لابـدَّ في حلَّـةِ زَهـر

فالشاعر رغم كل المصائب، والآلام، والمآسى، وطول أمد الجور الصهيوني، لم يتضجر ولم يشكُ ولم يفقد أمله أذ أنّه يؤمن بربيع النصر الذي سيقبل لا محالة.

ج) الرموز التراثية: التراث الثقافي والفكري لكل أمّة هو الذي يشكل هويتها ويعد من أركان حضارتها وتطوّرها. وغالباً ما تكون هناك علاقة وثيقة بين ماضي الأمم، وحاضرها، ومستقبلها، إذ إن الأمم تمضي في طريق التطور والرقي على ضوء ثراء الماضي فالأمّة إذا فقدت ماضيها إنما تفتقد جذورها وبالتالي لا تستطيع بناء حاضرها ومستقبلها. فالرموز التراثية من الشخصيات والأمكنة التي استخدمها الشاعر لرسم القضايا المتعلقة بوطنه كالتالي:

الشخصيات: استخدم توفيق زيّاد في شعره العديد من الشخصيات التاريخية والأسطورية العربية؛ من ضمنها يمكننا أن نشير إلى شخصية "عنترة وعبلة"، و"جساس"، و"أبي زيد الهلالى"، و"ذياب بن غانم"، و"عروة بن الورد"، و"أبيذر الغفاري".

1– عنترة وعبلة

تأخذ شخصية عنترة العبسي، مكانة مرموقة في ذاكرة الأجيال العربية، وهي في تجاوزها الزمني، وحلولها النفسي تحترق الحاضر عبر نوافذة عدّة، فهي متقبلة كرمز من وجهات نظر متعددة. إنّ التاريخ يقدّم لنا عنترة في صورة زاهية ومشرقة من كل وجوهها، فهو العاشق المخلص لابنة عمه عبلة، وهو الباحث عن انتماء من أجل إثبات ذاته، وهو الفارس الشجاع المدافع عن القبيلة في وجه الأعداء، فهذه الوجوه الثلاثة لعنترة وجوه شكلت سيرة وشخصية عنترة التى أصبحت ظاهرة شعرية وأسطورية في التاريخ الأدبي المعاصر، حيث تحول مع الزمن إلى رمز واسع الأفق(28). وعنترة من الرموز التاريخية الهامة التي نالت إعجاباً كبيراً بين الشعراء الفلسطيني. فكان الشاعر توفيق زياد، قد ركز في شعره على الجانب الغرامي من هذه الشخصية التاريخية والذي يروي قصة حبّ عنترة لبنت عمّه عبلة ويقول(29):

كما تَحكي... عَن عَبسٍ ... عَن عَنتَر عَن عَبلة ... عَن سالفِها الأسمَر

2– جسّاس بن مرة

كان جساس من زعماء قبيلة بكر البواسل وشاعراً من شعراءها. وقد أدى قتله لكليب إلى نشوب حرب البسوس التي دامت أربعين سنة حصدت العديد من الأرواح ومن بينها جساس نفسه الذي قتل 15 شخصاً من قبيلة تغلب. فالشجاعة التي أبدها جساس في ساحات الوغي وعدم الخنوع الذي أظهره لجور كليب، قد جعلا منه رمزاً للبسالة والإباء في الشعر العربي (30). يوظفه توفيق زيّاد في شعره ويروي قصة بطولته (31):

عَن جَسّاس وأبو زيد وذَيّاب ... "أبو زيد الهلالي" و"ذياب بن غانم"

في العام الخامس الهجري، هاجر عدد غفير من قبائل بني هلال وبني سليم إلى شمال إفريقيا. فقد كانت هذه الهجرة في الحقيقة مؤامرة من قبل القرامطة لإسقاط الدولة الزناتية. هذا الحدث الذي عرف فيما بعد في التاريخ العربى

بـ"التغريبة الهلالية" فقد ترك أثراً بالغاً على الأدب عامة والشعر خاصة. ولذلك قد عكس العديد من الشعراء في دواوينهم بطولات مقاتلي هاتين القبيلتين من أمثال أبي زيد الهلالي وذياب بن غانم أثناء هجرتهم إلى بلاد المغرب الإسلامي(32).

فوظف توفيق زيّاد هاتين الشخصيتين وهجرة قبيلة بني هلال كرمز لتبيين أبعاد الهجرة الفلسطينية في عام 1948. يتحدث الشاعر في قصيدة "سمر في السجن" عن الذكريات المرّة في السجون الصهاينة والمسامرات التي كانت تدور بين السجناء الفلسطينيين. ويتذكر أحاديث أحد أصدقاءه السجناء الذي كان معه في الزنزانة إذ تحدث عن قصص البطولات لشخصيات عربية من مثل عنترة، وعبلة، وشجاعة مقاتلين من مثل جسّاس، وأبي زيد، وذياب(33):

أتـــــــذَكَّرُ...إنِّي أتَـــــــذكَّر... لَمّا كُنَّا في أحشاءِ الظلمَةِ نسمرُ
ورَبابَـــــةَ "إبـــــراهيم" تُعمِّـــــر كما تَحكي.. عَن عَبسٍ.. عَن عَنتَر
عَـن عَبلـة ... عَـن سـالِفِها الأسمَـر عَـن جَسّـاس وأبوزيـد وذَيّـاب ...
وعَـن التّغريبـةِ... والأحبـابِ الغيـاب... وعَن البَطلين...كأنَّهُما جَبلَين...
وعَن السّيفِ المصقول... أبى الحَدَّين وعَن العُشّاق... عَن الحبِّ الأخضَر

استخدم توفيق زياد في هذه القصيدة، شخصية عبلة رمزاً لفلسطين وعنترة رمزاً للمقاتلين الذين حرموا عن الوصول إلى حبيبتهم بفعل الاحتلال. وقد ظهرت شخصية جسّاس في شعره كرمز لأولئك الأبطال الفلسطينيين الذين يأبون الجور ويقاومون الطغاة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وقد استخدم الشاعر شخصيتى أبي زيد وذياب بن غانم رمزين للاجئين البواسل الذين يقاسون شتى المآسي والمشقات في ديار الغربة. مفردة "العشاق" في هذا الشعر أيضاً ترمز للشهداء الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل أوطانهم.

3– عروة بن الورد وأبوذر الغفاري

كان عروة بن الورد أكبر الشعراء الصعاليك شهرة في العصر الجاهلي وفي الوقت نفسه أيضاً إنسان شريف يهتمّ بفقراء قبيلته ويساعدهم في شؤونهم. فقد

حارب الأغنياء الذين يبخلون بأموالهم عن الفقراء ويخاطر بنفسه في سبيل الدفاع عن حقوق المحرومين (34). وكان أبوذر الغفاري من كبار صحابيّ الرسول الأعظم (ص) واشتهر بتقواه، وتقشفه، وثورته على الفقر والظلم الاجتماعي، "تبرز تجربة أبيذر في المعارضة من خلال قصائد كثيرة في الشعر العربي المعاصر"(35). تأثر توفيق زيّاد بالشخصيات الثورية التي كانت تساعد الفقراء وتصلح شؤونهم باستمرار. ففي قصيدة "السريا والقرايا" يستلهم الشاعر من شخصيتي عروة بن الورد وأبي ذر اللذين استشهدا في سبيل الدفاع عن حقوق الفقراء والمعوزين، لقد وجد الشاعر في هذه الشخصيات التاريخية مجالاً خصباً للتعبير في إثراء تجاربه الشعرية المعاصرة، ووجد فيها طاقات إيحائية "ومرفأ يريحون عليه جوانحهم المتعبة من هموم الحياة، وقسوة الواقع، من حالات التمزق التي تعتري الإنسان المعاصر"(36)، وأنشد قائلا(37):

مُنكـراً أنسـابَه: مِـن عـروة الـورد مِـــن أبيذر إلـــى أكتـــوبر
مُســـتَبدلاً فكـــرَ الجَمـــاهير بفكـــر النـــرجس الطـــالع فيـــه

فالشاعر هنا يستدعى شخصية عروة بن الورد التي أنكر التحيز والغرور القبليّ وعاش في صف الفقراء وكذلك وظف شخصية أبيذر الغفاري الذي رفض استغال يقوم بها الأغنياء على حساب الفقراء وآثر الحياة مع المعوزين باعتبارهما رمزين للشخصيات المناشدة بحقوق المساكين والضعفاء.

– **الامكنة**: دور الأمكنة في الشعر الفلسطيني المقاوم هو ما يدفعنا إلى الافتراض بأن الشاعر يقدم في إحدى أهم تجلياته علاقة الإنسان بموروثة وبحاضره، ويتفاعل مع الحياة في مختلف ظروفها وأزمنتها، فهو يقدم صورة حية لصورة الإنسان الفلسطيني، ولذلك فإن قراءته وإعادة قراءته تفتح اكتشافاً معرفياً وجمالياً يغرينا لمتابعة تحولاته ووعيه الجمالي ضمن سياقه التاريخي وارتباطه بتراثه العريق. فمن الأمكنة التي وظفها الشاعر في شعره هي:

1– القدس

لا شك أن بيت المقدس يعتبر من أهم المدن الفلسطينية وقد احتلّ مكاناً مرموقاً في أدب المقاومة أيضاً. استخدمت هذه المدينة رمزاً للاحتلال والتشريد حيناً ورمزاً للهوية والإصالة الفلسطينية حيناً آخر. فالشاعر الفلسطيني لا يتناول موضوعة المكان عامة والقدس خاصة تناولاً باهتاً أو محايداً، وغنماً يقدمه تجربة خاصة تنطوي على حساسية مفرطة للأبعاد الجغرافية التي تبعث في النص امتداده الثقافي، والإنساني، والتاريخي، والأسطوري، والديني، وأخيراً الجمالي، وأثر ذلك في إنتاج الموضوع والدلالة(38). فإذا نظرنا إلى حضور القدس في شعر توفيق زيّاد، فإنّ هذا الحقل المكاني يحضر مثقلاً بتاريخه وقيمه الفكرية والدينية، إذ أن صورة القدس والأماكن الأخرى ليس مجرد لغة أو بنى تركب في النص، وإنما هي تصور قائم بذاته ومحمل بتاريخ الأفكار والرؤي، كما تتفجر فيه الدلالات والصور التي يرمز بها على الثبات والمقاومة الفلسطينية أمام الطغيان الصهيوني(39):

في كـــلِّ مكـــانٍ وَمكـــان ... في القُدس العَربيةِ في غَزة والجولان
وَطـــني ... مُحـــتَلاً كـــانَ وَطـــني ..أصـــبَحَ حُـــرّاً
والمحتَـلُّ الغاصِـبُ ... كـانَ واليَـوم تَحَـــوَّلَ ذكـــرى ...!

2– الجليل واللُدّ و...

الإلتزام بموضوع الأرض في الحركة الشعرية الفلسطينية طوال مسيرتها إنما هو ارتباط حتمي بالمصير، واختيار جمالي يستلهم ذاكرة المكان في بنية النص، من خلال ماتناوله الشعراء من إشارات للمكان وطرقهم موضوعات وقصص المنافي واللجوء وضياع الوطن والتي نجد أثرها واضحاً في شعرهم، إذ كثيراً ما أثاروا في نصوصهم معاني التمسك بالأرض والتشبث بالبقاء فيها حتى لا تُقتلع جذورهم منها بالإبعاد والتشريد وفي ذلك أنشد توفيق زيّاد قائلاً(40):

كأنّنـــــا عشـــــرونَ مســـــتحيل في اللّـــــدِّ والرامـــــةِ والجليـــــل
هُنا...على صُدورِكُم باقونَ كالجِدار وفي حُلـــــــــــــــــــوقكُم
كنقطـــــةِ الزّجـــــاجِ كالصّـــــبار وفي عُيـــونكُم زوبعـــةٌ مـــن نـــار

لم ينفصل هذا الشعر عن المكان بشتى تنوعاته طبيعة، ومدينة، وقرية، وأسماء..، وما التصنيفات التي دأبت عليها دراسات الشعر الفلسطيني بين التسميات المختلفة شعر التزام، أو مقاومة، أو ثورة، أو تحرر إلا أوجهاً وصوراً متعددة للإعلان الفردي والجماعي عن الانتماء للمكان وجعله خلفيةً للقصيدة، وفضاءات غالباً ما كانت ظاهرة أو خفية في النص الشعري. وحرص الشاعر على تسيمة أمكنته ولم ينحصر ذلك في ذكر أسماء الأماكن مثل غزة، واللد، والرامة، والجليل، وغيرها. وإنما جعل منها مرجعيات للمتخيل الشعري وللتجارب الإنسانية، والنفسية، والإبداعية(41). فذاكرة التاريخ وذاكرة الأرض امتداد لذاكرة الشاعر وانتماء لنفس الوعي بالوطن وتمسك بنفس الهوية التي حملها الشاعر في قصيدته ومنفاه فهي كيانه ووجوده الذي عبر عنه توفيق زيّاد في هذه الأشعار.

3– حطين

أما حطين فقد تمثلت في الرؤية الشعرية رمزاً من رموز البطولة التي صنعها صلاح الدين وتجسدت فيها صور التضحية والفداء، وعنوان للذود والدفاع عن المقدسات؛ حيث جعل من حطين "سلاحاً ماضياً للتصدي والإصرار، وباعثاً قوياً للعودة إلى وطنه، برغم مصارعة الشاعر الأهوال، والأمواج، والتشرد، إلا أنّه غدا صابراً صامداً؛ لأنّه استند إلى عروبته، ورمز من رموزها حطين"(42). فغدت معركة حطين في ذهن الشاعر المقاوم الفلسطيني الأمل الذي يناجيه، ويشكو إليه واقعه المرّ، والهوان، والانهزام الذي لحق به نتيجة تقاعس أصحاب الأمر والنهي، فأصبحت معركة حطين عند توفيق زيّاد، رمز الإنقاذ الذي يتشبث به في معركته الطويلة من أجل الهوية والتمسك بالأرض(43):

وأدمـــــي وجـــــه مغتصـــــبي بشـــــــعر كالسّـــــــكاكين
وإن كســـــر الـــــرّد ظهـــــري وضـــــعت مكانـــــة صـــــوّانةً
مـــــن صـــــخر حطـــــين

د) رمزية الألوان: تمتلك الألوان رصيداً من رمزية في كل الحضارات العالمية. فكل لون في أدب المقاومة يمتاز بمعنى خاص يستلهمه الشاعر ليرسم من خلاله آماله، وآلامه، وطموحه، ويصوّر مشاعره وعواطفه. وقد استفاد توفيق زياد من رمزية الألوان في شعره وهذا ما نبسطه فيما يلي:

1- الأحمر

يعتبر اللون الأحمر من أوائل الألوان التي عرفها البشر في الطبيعة، فهو من الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس، واشتعال النار والحرارة الشديدة، وهو من أطول الموجات الضوئية(44). هو اللون الذكاء، والمجد، والجلال، وهو لون النار، والدم، والحياة(45). هذا اللون كان من أكثر الألوان استعمالاً في الشعر المقاوم الفلسطيني، فراح يرمز إلى دلالات وإيحاءات عدّة، ولعل أبرز سمة للأحمر في الشعر الفلسطيني، ارتباطه بالدم، ممّا جعله لوناً مخفياً ومقدساً في وقت واحد، ممّا نحى في كثير من دلالاته منحى التحدي، والثورة، والصمود، والفرح، والسعادة. وهذا اللون الذي قد تجلى في شعر توفيق زيّاد بكثرة غالباً ما استخدم رمزاً للحرية، والثورة، والنهضة ضدّ الجبابرة والمستكبرين (46):

مَعَكُـم ...مَـعَ الحِـزبِ الـذّي نَقَـلَ الرُّعـاع إلـــى قبـــابِ الكِـــرملين
ومَـعَ اللـواءِ الأحمَـر العـالى ... لوائـك يـا لنـــــــــــــــــــين

فقد تاثر الشاعر بالأفكار الشيوعية كما يتجلى ذلك من خلال ذكره للعلم الأحمر الذي يعد رمزاً للسلوك الاجتماعي وانتمائه الشيوعي(47). وفى موضع آخر يعتبر الشاعر اللون الأحمر رمزاً للنصر، والحيوية، والسعادة التي تعقبته. ولذلك نراه يتحدث مع أصحابه عن مستقبلهم الأحمر الذي بانتظارهم(48):

ونُحـــدِّثُ عَـــن صَـــلَفِ الأقـــزام عَـن شَعبٍ لم يَحنِ الهامَّةَ للظلام
ونُحـــدِّثُ ... عَـــن غَـــدِنا الأحمَـــر عَـــن دُنيـــا مِـــن حُـــبٍّ وسَـــلام
وحَـــدائِقَ مِـــن وَردٍ ... مِـــن عَنـــبَر وجَداولَ مِن خَمرٍ ... مِن سُكَّر

فمقصود الشاعر من الغد الأحمر، هو المستقبل المشرق المليء بالدعة والسعادة. ومفردات "الحبّ، والسلم، والبساتين الجميلة، والورد الأحمر، وأنهار الخمر" التى جاءت من بعده تؤيد صحة هذا الكلام.

2– الأخضر

فهو لون النبات الذي يكسب حيويته، وإخضراره من الماء. وكذلك هو لون الصحوة في الحياة، والأمل، والطاقة، والخلود(49). يعتبر اللون الأخضر من الألوان المفضلة والمحببة لدى الإنسان، ويحمل في طياته معانٍ سامية عدّة، فهو من أكثر الألوان استقراراً ووضوحاً في الدلالة، فهو "قرين الشجرة رمز الحياة، والتجدد، وهو مرتبط بالحقول، والحدائق، وهدوء الأعصاب"(50). الصلة الوثيقة الموجودة بين هذا اللون والطبيعة تشعر النفس الإنسانية بالارتياح، ولذلك نجده لدى كل الأمم والمذاهب الدينية لوناً مقدساً، ومريحاً، ومحبوباً.

ايحاءات هذه الدلالة انعكست تماماً عند الشاعر توفيق زياد فالحديث عن مستقبل مشرق وسط الركام الناجم من الاحتلال وممارسته القمعية يبدو بعيد المنال، أما الشاعر فبثقته العارمة المفعمة بالتحدي والحياة، يرسم ذلك المستقبل من خلال توظيف كتلة من العناصر التي تتصل بطبيعة الحياة(51):

أحبـــــــــــــــــائي أنـــــا بـــــالورد والحلـــــوى
وكـــــل الحـــــبّ أنتظـــــر أنـــــا والأرض والقمـــــر
وعـــين المـــاء والزيتـــون والزهـــر وبياراتنـــــــا العطشـــــى
وســـــــكتنا، وكـــــرم ودوال وألـــف قصـــيدة خضـــراء
منهـــــا يـــــورق الحجـــــر

فالشاعر من خلال استخدام صفة "الخضراء" لقصائده والتي أنجز تحولاً ثورياً في مسار المقاومة ضدّ المحتل، قصد إبراز جانب من جوانب المستقبل المشرق والحياة المزدهرة بتوظيف الأخضر لها والتي فيها يورق الحجر(52). فهذا اللون الذي نجده بكثير في قصائد توفيق زيّاد يدلّ على معانى الانتعاش، والنقاء، والأمل بمستقبل زاهر، كما جاء في خلال الأبيات التالية(53):

ويَلـــوحُ رأسُ الكَرمَـــل المخمُـــور برقَـــــــع بِالضُّـــــــباب
الفَجـرُ فَـوقَ جَبينِـهِ المعتـزّ كالعـاج المـــــــــــــــــذاب
وتَلـــوحُ بَـــينَ شِـــعابِهِ الخَضـــراء فـــــى كَنـــــفِ الهضـــــاب
أعشـــاش عشـــاقٍ تطـــوّفُ حَولهـــا قُبَـــــــــلُ الشَّـــــــــباب

فالشاعر ينشد الأشعار في وصف شوقه للروابي والجبال التي يراها من خلال فتحة السجن ويرسم لشعبه مستقبلاً مشرقاً وسط هالة من اليأس، والغم، والحيرة. فهو يرسم إخضرار السهول والوديان، اللون الذي يرمز إلى الوداعة والارتياح الذي يسود الوطن بعد دحر الاحتلال.

3– الأسود

هذا اللون يدلّ على الدمار، والفساد، والذلة، والصعوبات، والقسوة. يستدعى اللون الأسود في الأذهان القوى السحرية والشيطانية التي ترتبط بمعاني الأجرام، والفضائح، والمؤامرات، والإغتيالات ارتباطاً وثيقاً. فالأسود "لون يثري الحزن، والتشاؤم، والخوف من المجهول، لارتباطه بأشياء منفّرة في الطبيعة دون سائر الألوان، فهو مرتبط بالليل والظلام، والزفت والسخام، والهباب والرماد المتخلف عن الحريق"(54). يرمز اللون الأسود في قصائد توفيق زيّاد إلى الفوضى، والشقاء. فـ"الخيمة السوداء" في الأبيات التالية تدلّ على الجوع، والعراء، والتشرد، والعسر. إذ إن الخيم هي مأوى للاجئين الفلسطينيين الذين يقاسون فيها شتى المآسي والمشقات (55):

الخيمَـةُ السّـوداءُ أذبَلهـا الحنـينُ إلـى الـرَّواح
ومَضَـــت بِهـــا حَـــدَقُ العُيـــونِ، كأنَّهـــا
حـــــــــــــــدُّ السّـــــــــــــــلاحِ
مُتَطلعـاتٍ للـذُّرى الشَّـماءِ في الـوَطنِ المبـاحِ
للتّـــــــــــــــينِ، للزّيتـــــــــــــــونِ
للطـــــــــيرِ المصَـــــــــفَّدِ، للأقـــــــــاحِ

يستخدم الشاعر في موضع آخر "غماماً أسود" رمزاً للعدو الطاغي الذي يأتي بسيل جارف لا يبقى إلا على الدمار والفساد. لأنّ الشاعر بسبب الكبت والقمع من قبل الاحتلال لا يستطيع الإفصاح عما يكنه في صدره، بل لجأ إلى لغة الرمز اللوني، حيث رمز إلى الظلم، والاضطهاد، والتعسف اللذي يمرّ به الشعب الفلسطيني من قبل العدو الصهيوني، بـ"غمام أسود" الذي يقتل "الزهر، والأطفال، والقمح، و..."(56):

مِـن هُنـا مُـرّوا إلـى الشَّـرقِ غَمامـاً أسـوَدا
يَقتُلونَ الزَّهرَ والأطفالَ والقُمحَ وحَبّاتِ النَّدى
ويَبيضُـونَ عَـداواتٍ وحِقـداً وقُبـوراً ومَـدى

وهذه الصورة القاتمة من العدو المحتل وممارسته نلمسها عند الشاعر الذي يحمل الاحتلال مسئولية كل المآسي والأحزان التي جثمت على الشعب الفلسطيني.

4– الأبيض

يكاد اللون الأبيض من بين الألوان أن يتفرد بدلالاته المعهودة بتوافق البشرية حول إيحاءاته ومعانيه. فهذا اللون منذ القديم "يشير إلى الطهر، والإخلاص، والهداية، والخير، والصفاء، والعدل، والنقاء، والنظافة"(57). والتي تتجسد في نقاء الضمير وصفاء النفس المتمثل بالقلوب البيضاء والأيادي

البيضاء، المجبولة على حبّ الإنسانة، الفارغة من الحقد والكراهية وتارة ترمز دلالات هذا اللون إلى الأمل، والتفاعل، والإشراق، والتقديس، والعفة وهذا ما كان متوارثاً في الديانات السابقة(58). فوظف توفيق زياد اللون الأبيض بدلالته السلبية واستعمله للترميز بالعدو الصهيوني، فهو رمز للذبول، والمرض، والحيرة في شعره(59):

مِــن كَرمَــةٍ... في كُــلِّ صَــيفٍ تَمــلأ السّــلة
وتوتـــــةٍ شـــــاميةٍ، بَيضـــــاء، مُعتَلـــــة

يرى الشاعر أن مصيبة الاحتلال لم يقتصر تأثيرها السلبي على الناس وإنما شمل حتى النبات إذ جعله مريضاً مثلهم (60). فنرى الشاعر هنا يكشف عن بعض جوانب المأساة الفلسطينية من خلال إضفاء صفة البياض على شجرة التوت.

نتيجة البحث

من خلال دراسة وتحليل الرموز في شعر توفيق زيّاد توصلنا إلى النتائج التالية:

في تجربة زيّاد الشعريّة رموز كثيرة ذات معطيات دلالية حسية في ذاتها، قد اتخذها الشاعر وسيلةً إيحائية للإشارة إلى انفعالات ثورية. هناك العشرات من الرموز التاريخية التي وظفّت في شعره وتنوعت دلالاتها وإيحاءاتها، ولكن بسبب ضيق المجال نستغني عن إيراد تلك الرموز والخوض في تفاصيلها. استطاع الشاعر تحويل اللغة الشعرية إلى لغة رامزة تستمد قدرتها الإيحائية من تجاوزها الواقع اللغوي كما انتفع من استخدام أنواع الرموز بإيحاءاته ودلالاته في التعبير عن تجاربهم المعاصرة، وجاء توظيف تلك العناصر موزعةً بين الإشارة والإلماح والتضمين الجزئي وبين الاستغراق الكلي للقصيدة، وقد كان الهموم السياسية، والاجتماعية، والقومية، والنفسية بما فيه قضية الأرض، والتشبث بالجذور، والتغني بالأمجاد،

والحثّ على الثورة والنضال، واستعادة الوطن، ودحر المحتل، وغيره، في أمل أن تسهم تلك الإفرازات الدلالية في إشعال الوعي الجماعي والنهوض بالأمة لاستعادة حريتها، وهيبتها، وماضيها المشرق.

فعلى هذا عندما يواجه الشاعر الحكومات الطاغية لا يستطيع التصريح بالواقع المزري والتعبير عن أفكاره بصورة جلية. ولذلك يلجأ إلى اللغة الرمزية ويعبر عن ذاك الواقع بالرموز والايحاءات. يقدم الشاعر إضافة على المعاني المعروفة للرموز معاني ومفاهيم جديدة كي يعطي صورة واضحة عن الوضع الفلسطيني المزري تحت الاحتلال الصهيوني. حازت الرموز الطبيعية على الحظ الأوفر من الذكر من بين رموزه المتعددة وقد كان معاني الانتفاضة، والثورة، والأمل بالمستقبل ومقاومة المحتل من أبرز مفاهيمها.

من خلال دراسة أشعار توفيق الرمزية ندرك أن رغبة الشاعر في استخدام الرموز الإيجابية كان أكثر من الرموز السلبية. وقد تجلت العناصر اللغوية المحيية للآمال في شعره بكثرة ويرجع سبب ذلك إلى أنه شاعر متفائل يرسم لوحته الفنية في منتهى التفاؤل.

الهوامش والمصادر

1- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد 6، ص 222- 223، (مادّة رَمَزَ)، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 2010.

2- أدونيس، على أحمد سعيد، الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، ص 160، دار الساقي، بيروت، 1978.

3- أحمد، محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص 40، دار المعارف، الطبعة الثالثة، دمشق، 1984.

4- مبارك، محمد، دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، ص 91، منشورات وزارة الأعلام دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976.

5- الحداد، على، أثر التراث في الشعر العراقي، ص 74، دار الآفاق، بغداد، 1986.

6- ولد الشاعر والكاتب الفلسطيني البارز توفيق زياد في عام 1929 في مدينة الناصرة ودرس المراحل الابتدائية هناك. ثم سافر إلى روسيا من أجل إكمال دراسته في المراحل العالية. وأثناء الاحتلال عام 1948انضم إلى الحزب الشيوعى «راكاح» وقد كانت له نشاطات سياسية كثيرة في هذا الحزب. في عام 1974شغل منصب عمدة مدينة الناصرة ودخل البرلمان نائباً من قبل الأقلية العربية في فلسطين المحتلة. وفي عام 1990 حاز على نوط الثقافة والفن في بيت المقدس. يعتبر توفيق زياد من رواد شعر المقاومة الفلسطينية. وقد كرس هذا الشاعر كل مواهبه وفنونه في خدمة الأهداف الفلسطينية وإثارة المشاعر الشعبية والذود عن التراث الفكري والفني الفلسطيني. إضافة إلى الدواوين المتعددة بقيت من هذا الشاعر العديد من المقالات، والبحوث، والكتب، والروايات. وقد أبدى اهتماماً بالغاً في الأدب الشعبي الفلسطيني (انظر: ملا ابراهيمي، عزت، الجدول الزمني لأحداث تاريخ فلسطين المعاصر، ص 395، مطبعة مجد، طهران، 1389).

دواوينه الشعرية كالتالي: أشدّ على أياديكم (مطبعة الاتحاد، حيفا، 1966م)؛ أدفنوا موتاكم وانهضوا (دار العودة، بيروت، 1969م)؛ أغنيات الثورة والغضب (بيروت، 1969م)؛ أم درمان المنجل والسيف والنغم (دار العودة، بيروت، 1970م)؛ شيوعيون (دار العودة، بيروت، 1970م)؛ كلمات مقاتلة (دار الجليل للطباعة والنشر، عكا، 1970م)؛ عمان في إيلول (مطبعة الاتحاد، حيفا، 1971)؛ الأعمال الشعرية الكاملة (دار العودة، بيروت، 1971؛ دار الأسوار، عكا، 1985)؛ تهليلة الموت والشهادة (دار العودة، بيروت، 1972)؛ سجناء الحرية وقصايد أخرى ممنوعة (مطبعة الحكيم، ناصره، 1973).

7- قط، عبدالقادر، في الأدب العربي الحديث، ص 62، دار غريب، القاهرة، 2001.

8- عبيات، عاطي ويحيى معروف، استدعاء الرموز ودلالاتها في الشعر الفلسطيني المقاوم المعاصر، ص 311، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة العاشرة، العدد الثاني، طهران، 1435.

9- إقبال، رشيدة، الرمز الشعري لدى محمود درويش: الرمز الطبيعي نموذجاً، ص 56، مجلة علامات، العدد 62، جدة، 2008.

10- النابلسي، شاكر، مجنون التراب، ص 303- 304، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987.

11- زياد، توفيق، ديوان، ص 199، دار العودة، بيروت، 1970.

12- شواليه، ژان وآلن گرابران، فرهنگ نمادها [موسوعة الرموز]، المجلد 2، ص 184، الترجمة إلى الفارسية: سودابه فضايلى، مطبعة جيحون، طهران، 1385 – 1388ش.

13- زياد، توفيق، ديوان، ص 283- 284، دار العودة، بيروت، 1970.

14- شواليه، ژان وآلن گرابران، فرهنگ نمادها [موسوعة الرموز]، المجلد 4، ص 297، الترجمة إلى الفارسية: سودابه فضايلى، مطبعة جيحون، طهران، 1385 – 1388ش.

15- زياد، توفيق، ديوان، ص 286، دار العودة، بيروت، 1970.

16- شواليه، ژان وآلن گرابران، فرهنگ نمادها [موسوعة الرموز]، المجلد 4، ص 714- 715، الترجمة إلى الفارسية: سودابه فضايلى، مطبعة جيحون، طهران، 1385 – 1388ش.

17- زياد، توفيق، ديوان، ص 257، دار العودة، بيروت، 1970.

18- الخاقاني، حسن عبد عودة، الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي، ص 209- 210، جامعة الكوفة، العراق، 2006.

19- زياد، توفيق، ديوان، ص 234- 235، دار العودة، بيروت، 1970.

20- الخاقاني، حسن عبد عودة، الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي، ص 210، جامعة الكوفة، العراق، 2006.

21- زياد، توفيق، ديوان، ص 102- 103، دار العودة، بيروت، 1970.

22- نفس المصدر، ص 173، دار العودة، بيروت، 1970.

23- شواليه، ژان وآلن گرابران، فرهنگ نمادها [موسوعة الرموز]، المجلد 4، ص 29، الترجمة إلى الفارسية: سودابه فضايلى، مطبعة جيحون، طهران، 1385 – 1388ش.

24- زياد، توفيق، ديوان، ص 274- 275، دار العودة، بيروت، 1970.

25- نفس المصدر، ص 283- 284، دار العودة، بيروت، 1970.

26- نفس المصدر، ص 322- 323، دار العودة، بيروت، 1970.

27- نفس المصدر، ص 274- 275، دار العودة، بيروت، 1970.

28- مجاهد، أحمد، أشكال التناص الشعري دراسة في توظيف الشخصيات التراثية، ص 88- 89، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

29- زياد، توفيق، ديوان، ص 116، دار العودة، بيروت، 1970.

30- الكركي، خالد، الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، ص 52، مكتبة الرائد العلمية، بيروت، 1989.

31- زياد، توفيق، ديوان، ص 116، دار العودة، بيروت، 1970.

32- مجاهد، أحمد، أشكال التناص الشعري دراسة في توظيف الشخصيات التراثية، ص 101- 102، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، .1998

33- زياد، توفيق، ديوان، ص 116- 117، دار العودة، بيروت، 1970.

34- محمود، عبد المطلب، التراث والحداثة في الشعر العراقي الحديث، ص 115، رسالة ماجستير، بغداد، 1971.

35 - الصوري، محمد علي، أبوذر الغفاري الاشتراكي المطارد، ص 73، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.

36- زيدان، رقية، أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، ص 278، دار الهدى، حيفا، 2009.

37- زياد، توفيق، ديوان، ص 111، دار العودة، بيروت، .1970

38- مجناح، جمال، دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص 125، جامعة الحاج لخضر، الجزاير، 2008.

39- زياد، توفيق، ديوان، ص 215، دار العودة، بيروت، 1970.

40- نفس المصدر، ص 197- 198، دار العودة، بيروت، 1970.

41- مجناح، جمال، دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، ص 125- 126، جامعة الحاج لخضر، الجزاير، 2008.

42- شوقي، أبو زيد، التواصل بالتراث في أعمال سميح القاسم الأدبية، ص 178، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، .1992

43- زياد، توفيق، ديوان، ص 125- 126، دار العودة، بيروت، 1970.

44- عمر، أحمد مختار، اللغة واللون، ص 111، عالم الكتاب، القاهرة، 1982.

45- أبوعون، عبدالقادر، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلى، ص 48، رسالة الماجستير، جامعة النجاح الوطنية، غزة، بدون تاريخ.

46- زياد، توفيق، ديوان، ص 13، دار العودة، بيروت، 1970.

47- زيدان، رقية، أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، ص 240، دار الهدى، حيفا، 2009.

48- زياد، توفيق، ديوان، ص 115- 116، دار العودة، بيروت، 1970.
49- شاهر، عبدالله، الأثر النفسي للألوان، ص4، مجلة الموقف الأدبى، العدد 379، 2002.
50 - عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب، ص 291- 292، دار فارابي، بيروت، 1988.
51- زياد، توفيق، ديوان، ص 131- 132، دار العودة، بيروت، 1970.
52- عبيات، عاطي ومحمود شكيب انصاري، اللون ودلالاته في الشعر الفلسطيني المقاوم، ص 55، مجلة جامعة الخليل للبحوث. فلسطين، 2013.
53- زياد، توفيق، ديوان، ص 105- 106، دار العودة، بيروت، 1970.
54- عمر، أحمد مختار، اللغة واللون، ص 202- 203، عالم الكتاب، القاهرة، 1982.
55- زياد، توفيق، ديوان، ص 110- 111، دار العودة، بيروت، 1970.
56- نفس المصدر، ص 441، دار العودة، بيروت، 1970.
57- ملا إبراهيمى، عزت، آزاده آزادى، اللون ودلالاته في ديوان فدوى طوقان، ص 224، مجلة المرأة والثقافة و الفن، العدد 2، طهران، 1392.
58- أبوعون، عبدالقادر، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلى، ص 48، رسالة الماجستير، جامعة النجاح الوطنية، غزة، بدون تاريخ.
59- زياد، توفيق، ديوان، ص 166- 167، دار العودة، بيروت، 1970.
60- عبّاد، عبدالرحمن، الحركة الأدبية الفلسطينية في الناصرة، ص 383، غزة، فلسطين، بدون تاريخ.

*_*_*